أخلاقنا العامة

كما يكشف عنها سلوكنا

الساعة الخامسة من الصباح والفصل شتاء والبرد قارس ولا يزال الظلام يخيم على المدينة ولكن سكان المنازل فى أحد الشوارع يستيقظون لأن بوقا قد أخذ يزعق فى الظلام كالمجنون. وذلك لكى يوقظ أحد الراغبين فى السفر وينبهه حتى يتهيأ للنزول حيث يركب الأتومبيل ويدرك القطار الذى سيغادر المحطة قبيل الساعة السادسة بدقائق .

من أجل شخص واحد يريد إدراك القطار يجب أن يزعج جميع السكان ويوقظوا فى فراشهم ؛ ولعل منهم المريض أو المتأخر فى نومه الذى يحتاج إلى زيادة ساعة من النوم، وسائق الأتومبيل لا يكلف نفسه مشقة الصعود إلى مسكن هذا المسافر وإيقاظه بطرق الباب أو دق الجرس ، بل يستهين بإزعاج الشارع كله وهو قاعد فى مقعده الدفىء الوثير بضغط زر البوق فيخرج صوته المنكر للإزعاج والإيلام .

فأى أخلاق هذه ؟ رجل مأجور لكى ينبه مسافرا ويوقظه ويحمله إلى المحطة ذلا يبالى إعنات شارع بأكمله، كأن سكانه بعض الهوام أو الحشرات التى لا تستحق أية مراعاة أو احترام ! ولو أن مثل هذا السائق وجد تعنيفا وتبكيتا ممن استأجره أو ممن أزعجهم من عشرات السكان لكف عن هذا التصرف وسلك سلوكا اجتماعيا يقوم على احترام المجتمع . ولكنه لا يجد هذا التبكيت أو التعنيف ، لأن الجمهور يهمل حقوقه ويسير على مبدأ " معلهش " ، وكل واحد من هؤلاء الذين أزعجهم البوق فى فراشه يؤمل فى قرب النهاية لهذا الإزعاج وأنه سيستأنف نومه . ثم هذا السواق أنانى يريد راحته ولا يبالى راحة غيره بل هو سيزداد أنانية بسكوت السكان على ضوضائه، ولعله يجمد إحساسه حتى لا يظن أنه يزعج أحدا بهذا السلوك ويمضى فيه خطة عامة كلما أراد تنبيه أحد الزبائن حتى لا ينتظر طويلا.

نعرف رجلا أمريكيا غادر القاهرة وعاد إلى أمريكا بحجة أن الضوضاء كثيرة مزعجة فى القاهرة ، وأن نيويورك التى يبلغ سكانها ستة أضعاف السكان فى القاهرة ليس فيها مثل هذه الضوضاء ، وقد يكون الرجل قد بالغ فى الوصف ، ولكن من منا يمكنه أن ينكر عظم الضوضاء فى القاهرة .

لقد احتاجت المحافظة أن تمنع بالأمر استعمال بوق الكلاكس فى ساعات معينة بالليل فى القاهرة . وهى لم تكن فى حاجة الى هذا الأمر لولا أنها وجدت أن البوق يستعمل فى غير وقته و بلاضرورة توجبه . فهنا تأييد لما ادعاه ذلك الامريكى بأن الضوضاء فى القاهرة أكثر مما ينبغى . وقد منعت بعض المحافظات نداء الباعة الجوالين فيما بين الساعة الثانية والرابعة بعد الظهر حتى يمكن الراغبين فى القيلولة أن يجدوها . ولكن حتى هذا الأمر لا ينفذ لأنه لا يجد التأييد من الجمهور . فإن البائع يتسلل الى الأزقة النائية و يصيح ويزعق ملء حنجرته فلا يجد من يعترض عليه . ولا يمكن المحافظات أن تعين شرطيا لكل زقاق كى ينفذ الأوامر والقوانين . بل يجب أن يجد الشرطة التأييد المثابر من الجمهور.

ومثل آخر من أخلاقنا التى تبدو فى تصرفنا وسلوكنا فى الشارع ، فإن مدينة كبيرة مثل القاهرة قد أصبح من الخطر الكبير على السابلة فيها أن يسيروا على غير المكان المعد لسيرهم ، وهذا المكان هو رصيف الشارع ؛ ولكن من ما لم يضطر إلى ترك الرصيف والسير على الأرض المخصصة للاتومبيل والترام وسائر العربات الخطرة لأن الرصيف قد شغله باعة الفواكه والخردوات والجرائد والحلويات .

و يستطيع القارئ أن يبادر إلى القول بأن الشرطة يهملون هؤلاء الباعة و يتركونهم على الرصيف ، وقد يكون هناك بعض الإهمال ، ولكن لا يمكن الشرطة أن يكونوا على أرصفة الشوارع فى كل وقت ويجب على الجمهور أن يعاونهم فى تطهيرها من الباعة والمتسكعين ، والمستضر فى النهاية بهذا الإهمال هو الجمهور ، فيجب لذلك أن يتنبه أفراده إلى واجب المعاونة للحكومة ولو على الأقل بتنبيه السلطة المختصة . وفى مثل هذه الأيام التى تطفأ فيها المصابيح يعود من الخطر العظيم أن يسير أحد على غير الرصيف لازدحام الباعة عليه ، لان العربات تظلل مصابيحها فتسوء الرؤية وتحدث الاصطدامات التى قد تكون مميتة . ونعرف أحد الشوارع قد استغل أرصفته الباعة وهو مع ذلك شارع مزدحم بالأتوميلات والترام لا تنقطع فيه المصادمات بين السابلة و بين الباعة . وهناك ألوان من التحكك التى يحدثها الزحام وتقع السيدات فريستها ...

فيجب على الجمهور أن يستعمل حقوقه و يطالب الباعة بترك الأرصفة . فإن لم يطيعوا تجب الشكوى السريعة إلى السلطة المختصة ، ولن نستطيع أن نحقق الهدوء والنظام ما لم نعاون الشرطة فى تنفيذ القوانين واللوائح . وهذه القوانين واللوائح مهما كثر عددها ومهما روعيت فيها الدقة والإحاطة لن تجدى شيئا عظيما ولن تمحو الفوضى المتمكنة فى شوارعنا ما لم يعرف الجمهور حقوقه و يطالب بتنفيذها . ونحن أفراد الجمهور — قبل الشرطة — مسئولون عن تنفيذها وعن صياح الباعة وعبث السواقين وازدحام الفاكهية والخردواتية على الأرصفة ، وقليل من الشدة أو الصرامة فى أخلاقنا كفيل بإصلاح هذه الحال .

وأقل خطرا من هذه المخالفات ولكن أفظع فى الذوق والكياسة تلك الصغائر التى نرتكبها فى مجتمعاتنا بلا مبالاة ، فقد فتحت الحكومة أبواب الأوبرا للجمهور ، وخفضت أثمان التذاكر إلى أدنى حد ، وليست الأوبرا قهوة عامة ولا هى حديقة مكشوفة ، وإنما هى دار للفن الجميل قد أنشئت بفاخر الأثاث ، فلا أقل من أن يرعى الجمهور هذه الظروف جميعها ويعاملها بما تستحق من رعاية وإكرام ، ولكن كم من مرة نرانا قاعدين متفرجين وإلى جانبنا رجل أو سيدة وهما لا يكفان عن أكل اللب ، وقشر اللب يتراكم تحت الأرجل ! وهل ننتظر من موظفى الأوبرا أن يتقدموا إلينا بالنصائح وأن يشرحوا لنا صعوبة الجمع بين تذوق الفن وتطعم اللب ؟ أليس لنا من التمييز السليم ما يبين لنا هذه الحقيقة البسيطة ؟

وهناك فى دار الأوبرا أيضا من يسقط التكاليف . فإذا أحس حرا فى اللوج عمد إلى التخفف ونزع بعض ملابسه كأنه فى بيته ، ونحن إنما نلبس ملابسنا للجمهور وليس لنا ، ولكل جمهور أسلوبه أو طرازه فى اللباس لا يمكن الفرد أن يشذ عنه إلا فى حدود معينة ، وللدور المسرحية فى جميع أنحاء العالم طراز من السلوك تقتضى المتفرجين اتباعه ، وقد يكون هذا الطراز بعيدا عنا فى طورنا الحاضر ، ولكن لا أقل من أن نكف عن أكل اللب ولا أقل من أن تكون بزتنا كاملة لا تنقصها الجاكتة مثلا .

وهناك بعد كل هذا إجرام يتجاوز ما ذكرنا من إهمال ، وسكوت الجمهور عليه هو بمثابة الاشتراك فيه ، نعنى ذلك التحكك الذى يقع من الشبان بالفتيات وقت الزحام فى الأتوبيس أو فى الترام ، ونعنى أولئك الأوغاد الذين يشرطون المقاعد ويتلفونها للعبث والشر لا أكثر ، فإن أفراد الجمهور هنا يجب أن يأخذوا القانون بأيديهم ، ويكفوا المستهتر عن انتهاك الأعراض والشر عن الأذى والإتلاف فان السيدة أو الآنسة التى يتحكك بها شاب تعجز فى العادة عن صده بالعنف الذى يليق به . لأنها نشأت فى بيئة لم تعلمها الألعاب الرياضية ولم تغرس فيها روح الاستقلال وهى تنتظر فى مثل هذه المصادفات معونة من الركاب . فيجب أن يكون فى كل منا من النجدة والشهامة ما يصون مثل هذه السيدة أو الآنسة .

وبغير هذا التعاون بين الحكومة والشعب لا يمكن أى رقى ولا يجدى أى قانون !